



كنا في مطالع حياتنا السياسية، عندما كانت تنقصنا المعرفة والخبرة، نصدق ما يقال لنا عن الإصلاح نقىضاً للثورة التي كنا نعشّقها، ونرى فيها أولوية يرتبط تحقيقها بإرادتنا وحدها، وليس بأي أمر خارجها، فهي فعل ذاتي صرف، من غير الجائز أن يساورنا الشك في فرص نجاحه، وكيف لا ينجح إن كنا نعيش له، ونضع وجودنا كله في خدمته.

كنا نكره الإصلاح لثقتنا بأنه لا يمكن أن يكون غير محاولة بورجوازية، وتاليًا رجعية، لإجهاض ثورتنا الوشيكة التي يستقتل "عدونا الطبيعي / السياسي" إلى قطع طريقها وزعزعة اقتناعنا بحتمية انتصارها، بدعوهـه إلى إصلاح هو بالتأكيد شر مطلق، ما دام هدفـه إنقاذ ما لا يمكن ولا يجوز إنقاذه: نظامـنا الظالم والمريض، المرفوض من شعبٍ يرغب بقوـة في الثورة، ويبدي استعدادـه الدائم لدفع ثمنـها من دماءـه. لذلك، من الخيانة لأنفسـنا وللثورة قبل إصلاح يقطع الطريقـ عليها، مع أنها هـدفـ أية سياسـة تستحق اسمـها.

ما أن أحـكم النظامـ الأـسدي قبـضـته على سـورية وأـحزـابـها ومواطـنيـها، وأـخـضع شـعبـها لأـشـد أنـواع التعـذـيب والاضـطـهـاد، وجـارـتـهـ بعضـ أـحزـابـ المـعارـضـةـ في اعتـبارـ كـارـثـةـ الثـامـنـ من آـذـارـ ثـورـةـ، حتـىـ تـبـدـلـتـ هـذـهـ المعـادـلـةـ، وأـدـرـكـناـ أـنـ الثـورـةـ لمـ تـعدـ، كـمـ كـنـاـ نـتوـهمـ، فـيـ مـتـنـاـولـ أـيـدـيـنـاـ، وـأـنـنـاـ نـفـتـقـرـ إـلـىـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ تـنـفـيـذـهـاـ. لـذـكـ، لـمـ تـعـدـ بـدـيـلاـ حـتـمـياـ لـلـأـمـرـ القـائـمـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ كـانـ يـزـدـادـ فـسـادـاـ، وـيـمـعـنـ فـيـ إـضـعـافـ (ـوـسـحـقـ) التـنـظـيمـاتـ وـالـتـيـارـاتـ المـطـالـبـةـ بـالـحرـرـيـةـ، وـكـنـاـ نـظـنـ أـنـ الثـورـةـ سـتـضـعـ السـلـطـةـ بـيـنـ يـدـيـهـاـ، فـيـبـنـتـ الـوـقـائـعـ خـطـأـ هـذـاـ التـصـورـ، وـأـنـشـأـتـ مـعـادـلـةـ سـيـاسـيـةـ جـدـيـدةـ، حـدـهـاـ الـأـوـلـ النـظـامـ وـالـثـانـيـ إـلـاصـلـاـحـ الـذـيـ لـمـ يـعـدـ شـرـاـ مـطـلـقاـ فـيـ أـعـيـنـاـ، بلـ وـمـلـنـاـ إـلـىـ الـاعـتـرـافـ بـأـنـ يـمـهـدـ، فـيـ ظـرـوفـ مـعـيـنـةـ، لـإـنـضـاجـ تـدـرـجـيـ لـلـثـورـةـ ضـدـ نـظـامـ عـسـكـريـ استـولـىـ عـلـىـ السـلـطـةـ عـامـ 1963ـ، وـتـطـيـفـ بـعـدـ عـامـ 1970ـ، مـعـ انـقلـابـ حـافـظـ الأـسـدـ عـلـىـ رـفـاقـهـ. كـمـ أـدـرـكـناـ، فـضـلـاـ عـمـاـ سـبـقـ، أـنـ أـعـدـاءـ الثـورـةـ لـيـسـواـ بـالـضـرـورةـ إـلـاصـلـاـحـيـنـ أوـ أـنـصـارـاـ لـلـإـلـاصـلـاـحـ، وـيـمـكـنـ أـنـ يـكـوـنـواـ ضـدـ إـلـاصـلـاـحـ وـالـدـاعـيـنـ إـلـيـهـ. بـهـذـاـ الـفـهـمـ، الـجـدـيدـ، انـقـلـبـ إـلـاصـلـاـحـ مـنـ نـقـيـضـ رـجـعـيـ لـلـثـورـةـ إـلـىـ أـداـةـ ضـدـ الـاـسـتـبـادـ وـالـفـسـادـ "ـالـثـورـيـنـ"ـ، وـمـدـخـلـ إـلـىـ بـيـئـةـ سـيـاسـيـةـ

مجتمعية ثائرة، وانفصل مبدأً وواقعاً عن أحكامنا المسبقة، وغدا أكثر فأكثر هدفاً مرحلياً لا بديل له، حتى أن أستاننا الراحل إلياس مرقص قال، وهو يتأمل ما آلت إليه أوضاع سوريا، "إن إصلاحها سيكون أكبر من ثورة"، بما أن الإصلاح وحده سيخرجها من حال البربرية التي ركبتها، ويردها إلى وضعٍ شبيه بما كانت عليه قبل عام 1963 من حال شبه مدنية. وزاد اقتناعنا بالإصلاح أن العسكر الطائفي قام بكل ما هو ضروري من إفقار ونهب وإفساد وقمع وتجهيل، كي يكتب مطلب الإصلاح في صفوفه أيضاً، ويحول دون فعل إصلاحي شامل، وإن رمم أوضاعه، خشية أن تفلت أدواره من يديه، ويقوض وحدته، ويقوده إلى نظام يحمل بدبله في أحشائه. في المقابل، وضعت الأسدية مزق الشعب وتجمعاته ونخبه أمام خيار إجباري، هو الرضوخ للأمر القائم، أو التخلي عن المطالبة بالإصلاح التي كانت تضرم في برنامجها احتمال تغيير جوانب منه، والتخلي عن عديد من آليات إعادة إنتاجه. في هذا المفترق المفصلي، أدركنا أن الإصلاح لم يكن يوماً رجعوا بالضرورة، وأنه كان، في الشرط السوري القائم، الخطر الوحيد على العسكر الذي يمكنه إضعاف موقعه وتقويض تماسكه الأيديولوجي واختراق نواته السياسية والأمنية الصلبة، وتبنيه قطاعات مجتمعية واسعة وفاعلة ضده.

بسبب استحالتين، فرضهما ظرف مأزقي ومتزوم إلى أبعد حد: القيام بثورةٍ من جهة، والسكوت عن الأمر القائم من جهة أخرى، بلورت "لجان إحياء المجتمع المدني" في سوريا برنامجاً إصلاحياً واقعياً، كان في نظرها الإمكانية الوحيدة المتاحة للتغيير الظروف التي أنتجت موازين قوى لمصلحة النظام، ورضوخ الشعب للسلطة، وتخلت عن وهم جعل من الثورة أولوية وحيدة للأمر القائم، يمكن بلوغها من دون تدرجات وتوسطات، بسحبة أو بضربة واحدة؛ بما هي تحول كيفي ينبع عن تدكيمات كمية.

قررت اللجان العمل لإصلاح يحقق تدريجاً ما كان يطلب سابقاً من ثورة مستحيلة، لطالما عطلتها قدرة النظام على تقطيع التراكمات الكمية والتلاعب بها، والتحكم في طابعها وتعاقبها، بحيث يحول دون حدوث تراكم كمي ينقلب إلى تحول نوعي، أي ثوري. جعل النظام التراكم يدور في حلقةٍ مفرغةٍ، تتحايل الأحداث فيها وتشابك، من دون أن تبارحها، اتخذت حركتها داخلها مساراً دورانياً انحداري التوجه، احتجز الفزعة الثورية، وأحدث انهياراً متدرجاً وثابتاً في الحياة العامة وأوضاع الأحزاب، وحفز نمو السلطوية التي احتكرت المجال العام أكثر فأكثر، وضبّطت أنشطة الفاعلين فيه بالقمع الجسدي والأيديولوجي، وبسيطرتها على التعليم، والإعلام، وعالمي العمل ورأس المال، وتوزيع الدخل الوطني، والردع الانتقائي أو الدائم، المباشر وغير المباشر للمواطنين.. إلخ.

بإدراك النظام أن لا خطر عليه من الثورة، وأن الإصلاح يستجيب للحاجة إلى تغيير إن استجاب له طاول هيكله السياسي والتنظيمي وسياساته وتحالفاته المجتمعية، وأفضى إلى تخلق مركز سياسي داخلي إلى جانبه، وأفسح المجال لزعزعة جوانب من أوضاعه، وإرخاء قبضته عن عنق الشعب، والإخلال بتوازناته. لذلك رفضه جملة وتفصيلا، خصوصاً أن اللجان كانت قد صاغت برنامجاً للتغيير يمر في مراحل ثلاثة:

أولى يجب دفع النظام إلى أن يتخلّى خلالها عن آليات عمل وإدارة يعتمدتها، ويستبدلها بآلياتٍ من خارج منظومته الأيديولوجية، لتساعده على تخطي نقاط ضعف وتكسبه دينامية يفتقد إليها، يعني غيابها تخلق أزماته وعجزه عن إدارة شؤونه بالطرق التي تضمن استمرار خضوع الشعب له.

ثانية يتبيّن خلالها أن ما استعاده لم يكن كافياً لحل مشكلاته، الكامنة في جمود أيديولوجيته التي تحجز قدرته على الاستجابة للتحديات التي يطرحها الواقع عليه. لذلك، غداً من الملحّ التخلّي عن بعض مكوناتها واستبدالها بعناصر أيديولوجية لا تنتهي إلى نظامه، لكنها يمكن أن تحدّد بتعديمه بعناصر خارجة عن بيئته الخاصة.

ثالثة يدرك خلالها أن محاولات إصلاحه الجزئية لم ولن تحسن أوضاعه، بل تربكه وتضييف مشكلاتٍ جديدة إلى مشكلاته المعقدة، ينتجها تعارض واقعه المتحول مع أيديولوجيته الجامدة، التي لم يبق لديه من خيار غير التخلٰ عنها، وإنما فعن

إصلاحاته التي تمت بوحيها، بتخليه عن منظومته الأيديولوجية، يخرج النظام من إهابه القديم ويدخل في بديله الذي لا يمت إليه بصلة عضوية.

وكانت اللجان تركّز على دفع النظام إلى القيام بالخطوة الأولى من المرحلة الأولى. وبما أنه لم يفعل، فإنَّه لم يبق لها غير استخدام مطلب الإصلاح للضغط عليه، عبر إقناع الشعب به، وتعبئته قوى مجتمعية متزايدة الحجم. أضعف هذا التكتيك المزدوج شرعية النظام وأربكه، وقلص صدقته لدى قطاعاتٍ متعاظمة من السوريات والسوريين.

كان الإصلاح مطلبنا، وبعد دراسة مجتمعية معمقة، ربطناه بحرارك الفئات البينية المستنيرة من الطبقة الوسطى، وجعلنا مشروعه الوحيد حرية المواطن السوري في ظل العدالة الاجتماعية وحكم القانون. بذلك، بدا ما نطالب به وكأنَّه أكثر من إصلاح و"أكبر من ثورة"، ونزعنا عنه طابعه التحقيقري السابق، وجعلناه التوسط السياسي الفاعل بيننا وبين التغيير: هدفنا الواقعي، الذي علمتنا تجربتنا أنَّ زعزعة النظام بين احتمالاته، وأنَّه يتبع لنا قدرًا من الأمان يمكننا من العمل بما لدينا من مؤونة فكرية/ معرفية وتنسيق رفافي، وخطط وبرامج تجلب لنا دعماً وطنياً ومجتمعيًا واسعاً، بدأ يعبر عنه تشكُّل ضم قوى مجتمعية مستقبلية التوجهات.

بذلك، اعتمدنا الإصلاح مبدأً ونهجًا، وحولناه إلى سلاح نضالي، دافعنا بواسطته عن أنفسنا وشعبنا، ضد نظام تداعت سوريا على يديه ثورياً، قبل أن يدمِّرها عسكرياً. أما القفزة، فأعتقد أنَّ فكرتها لعبت دوراً مهماً في عجز الثورة عن رؤية مهامها الحقيقة، وفي تعثرها.

العربي الجديد

المصادر: